نشأة اللّغة وتطوّرها في ضوء علم النّفس الإدراكيّ التطوّريّ المقارن

الملخّص

ضاعف التّلاقح بين الحقول المعرفيّة المتباينة والاختصاصات المتجاورة القدرة على الابتكار اذ كلّما ربط الباحث صلة رحم بين مجال تخصّصه ومجالات أخرى للاستفادة من النّتائج الثّابتة في ميدانها تقدّمت معرفته واتّسعت فرص خلقه وإبداعه لأنّ الحدود بين العلوم مرنة وغير ثابتة. وتأسّست على هذه الفكرة النّظريّات اللّسانيّة على اختلاف فرضيّاتها فتفاعلت المعارف لدراسة الظّاهرة اللّغويّة تاريخا وخصائص ومظاهر، فتحوّلت اللّسانيّات مجالا لإعادة رسم الخارطة المعرفيّة وتجسيدا للدّراسات البينيّة .من هذه المقاربات اللّسانيّة نذكر المقاربة اللسانيّة الإدراكيّة التي تكتسب قوّتها وتماسكها من انفتاحها على علوم كثيرة للاستفادة من نتائجها الثّابتة. هي مقاربة سعى فيها مريدوها إلى تجاوز المدارس اللّسانيّة السّابقة في التّعامل مع الملكة اللغويّة عبر التّركيز على الذّهن في تفاعله مع المحيط المادّيّ المتحرّك والمتبدّل، واعتباره محورا للبحوث اللّغويّة. وقد تزامن ذلك مع تطوّر العلوم الإدراكيّة الجامعة لاختصاصات متنوّعة، أهمّها الفلسفة والأنثروبولوجيا وعلم النّفس الإدراكيّ وعلم النفس التطوّري المقارن .

استغلّ اللّسانيّون هذه العلوم متفاعلة لبحث عوامل نشأة اللّغة وتطوّرها وكيفيّة اكتسابها واختلفت النّتائج باختلاف الفرضيّات لكنّها اتّفقت حول حقيقة تفرّد الانسان بهذه القدرة ومن بين هؤلاء "مايكل طوماسيلّو" الذي أسّس رؤيته لتاريخ التّواصل البشريّ على مكتسباته من علم النّفس التّطوّريّ المقارن وصهرها مع مجالات علميّة متنوّعة من قبيل البيولوجيا التّطوّريّة والفلسفة والاجتماع والثّقافة .

يتضمّن هذا المقال محاولة لتأكيد حضور الخيط النّاظم بين اللّسانيات وعلم النّفس التّطوّريّ المقارن في دراسة قدرة الإنسان على بناء المعنى وتنويع الدّلالة بفضل ما يتفرّد به مقارنة بالكائنات الحيّة الأخرى وخاصّة الرّئيسات وهي القردة كبيرة الحجم. هي محاولة سنسعى فيها الى الإجابة عن بعض الأسئلة من قبيل

*كيف استفادت اللّسانيات من علم النّفس التّطوّري المقارن لبحث العوامل الدّاخليّة والخارجيّة المساهمة في نشأة التّواصل البشري

* .ماهو الدّور الذي تلعبه الظّروف الاجتماعيّة والثّقافيّة في إدراك الدّلالة وإنتاجها.

*ما قيمة علم النفس التّطوّريّ المقارن في إدراك العلاقة بين التّواصل الإشاري الحيواني والتّواصل اللّسانيّ البشري
* .كيف فسّر علم النفس اكتساب الأطفال للقدرة على التّواصل
.الكلمات المفاتيح :التواصل بشري /علم النفس التطوّري المقارن / اللّسانيات الإدراكيّة /دلالة/ /رئيسات .

Abstract

The Emergence of Language and Semantic Evolution in Light of Comparative Evolutionary Cognitive Psychology

The cross-fertilization between diverse knowledge fields and neighboring disciplines has doubled the capacity for innovation. Whenever a researcher establishes connections between their field of expertise and other disciplines to benefit from well-established findings, their knowledge advances, and their opportunities for creativity and innovation expand. This is because the boundaries between sciences are flexible and non-fixed. Linguistic theories, despite their varying hypotheses, have been founded on this idea, fostering an interaction of knowledge to study linguistic phenomena in terms of history, characteristics, and manifestations. Linguistics has thus become a field for redrawing the cognitive map and embodying interdisciplinary studies.

One of these linguistic approaches is **cognitive linguistics**, which derives its strength and coherence from its openness to numerous sciences and its integration of their established results. Proponents of this approach have sought to surpass earlier linguistic schools in addressing the faculty of language by focusing on the mind in its interaction with a dynamic and ever-changing material environment, considering it central to linguistic research. This approach coincided

with the development of cognitive sciences, which encompass various disciplines, most notably philosophy, anthropology, cognitive psychology, comparative evolutionary psychology

Linguists have harnessed these sciences interactively to explore the factors behind the emergence and development of language and how it is acquired. While their results have varied depending on different hypotheses, they have all agreed on the uniqueness of humans in possessing this ability. Among these scholars is **Michael Tomasello**, who based his perspective on the history of human communication on insights from comparative evolutionary psychology and integrated them with various scientific domains, including evolutionary biology, philosophy, sociology, and culture.

This article attempts to affirm the presence of a unifying thread between linguistics and comparative evolutionary psychology in studying humans' ability to construct meaning and diversify semantics, owing to their distinctiveness compared to other living beings—especially **primates** (large apes). It is an endeavor to answer several questions, such as:

- What role do social and cultural conditions play in the perception and production of meaning?
- How has comparative evolutionary psychology contributed to understanding the relationship between animal gestural communication and human linguistic communication?
- How has psychology explained children's acquisition of communication abilities?

Keywords:
Human communication / Comparative evolutionary psychology / Cognitive linguistics / Semantics / Primates.

المقدّمة

شهد مسار البحث العلميّ حركة داخليّة كانت دافعا إلى البينيّة ممّا أدّى إلى ظهور اختصاصات مختلطة قائمة في منطقة وسطى بين تخصّصين أو أكثر للبحث في ظواهر تمسّ الوجود الإنسانيّ لكشف أسرارها هو تفاعل ديناميّ يشكّل جوهر التقدّم المعرفيّ. لذلك أصبحت البينيّة ضرورة يقتضيها البحث خاصّة في المسائل الخلافيّة والمعقّدة التي تقتضي تعدّد زوايا النّظر وتنوّعها "هجرة المفاهيم والمصطلحات والإشكاليّات والمناهج من اختصاصات علميّة إلى أخرى ممّا يساهم في إخصاب التّخصّصات المستقبلة أو يسمح بتشكّل تخصّصات هجينة لاتلبث أن تستقلّ و تشكّل نظامها الخاصّ".[1]

كان الغرض من ذلك الجمع بين مختلف العلوم الوقوف عند أيسر الطّرق لفهم الظّواهر وإتقان تفكيكها خاصّة تلك المتعلّقة بالدّماغ البشريّ في ظلّ تطوّر العلوم ممّا مكّن الباحثين من الاستعانة بأجهزة مخبريّة طبيّة دقيقة استفادت منها خاصّة النّظريّات اللّسانيّة.

1-البحث اللّسانيّ بينيّ بطبعه

ارتبطت النّظريّات اللّسانيّة بتنوّع مناويلها بمجموعة من العلوم الإدراكيّة الجامعة لعدّة اختصاصات علميّة بينيّة أساسها الذّهن البشريّ. وبعض هذه العلوم وصفيّ تجريبيّ كعلم النّفس الإدراكيّ وعلم الأعصاب والأنتربولوجيا، وبعضها نظريّ تأسيسيّ كالفلسفة والمنطق وبعضها الآخر تطبيقيّ كالذّكاء الاصطناعيّ «العلوم الإدراكيّة حقل جديد يجمع ما يعرف عن الذّهن في اختصاصات أكاديميّة عديدة: علم النّفس واللّسانيّات والأنتروبولوجيا والحاسوبيّة وهو ينشد أجوبة مفصّلة عن أسئلة من قبيل: ماهو العقل؟ كيف نعطي لتجربتنا معنى؟ ماهو النّظام المفهوميّ وكيف ينتظم؟ هل يستعمل جميع البشر النّظام المفهوميّ نفسه؟ وإن كان الأمر كذلك فما هو هذا النّظام؟ وإن لم يكن كذلك، ماهو بالتّحديد ذاك الشّيء المشترك بين بني البشر جميعهم في ما به يفكّرون؟ فالأسئلة ليست جديدة ولكنّ بعض الأجوبة جديد."[2]

وهو ارتباط ناتج أساسا عن التّقرير الذي وضع العلوم الإدراكيّة واعتبرها علما شاملا لمجموعة من الحقول المعرفيّة البينيّة وهو تقرير "سلوون"[3] الذي تضمّن دعوة إلى دراسة الحقول

---

[1] ابن خود، نورالدّين، دليل الدّراسات البينيّة العربيّة في اللّغة واللّسانيّات والأدب فهرسة وتمهيد، مركز دراسات اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، ص 9.

[2] Lacoff ;George; women,Fire And Dangerous Thing, What Categories Reveal About The Mind, The University Of Chicago And London, 1987,pXI (preface)

تعريب الأزهر الزنّاد(مدخل في اللّسانيّات الإدراكيّة)2024ص9

[3] Sloan Report; https://digitalcollections.library.cmu.edu/node/31966

الموحّدة التي تتشكّل منها العلوم للبحث في طبيعة المعرفة البشريّة فنتج عن ذلك نموذج تخطيطيّ سمّي ب سداسيّ العلاقات المعرفيّة البينيّة[4]

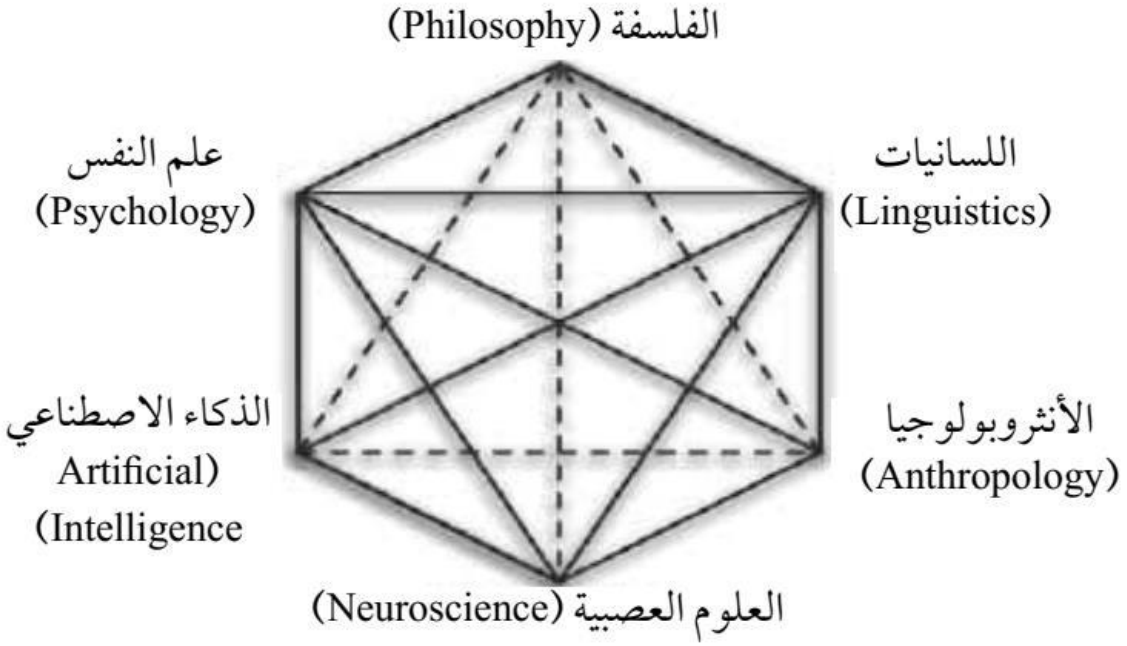

ساهم هذا الانفتاح بين العلوم في وقوع قفزة نوعيّة حفّزت النّهضة الفكريّة على الصّعيد الإنسانيّ ككلّ فاقتربت المجالات العلميّة حتّى كادت تنصهر في وحدة تشملها جميعا و"أصبحت اللّسانيّات مركز الجاذبيّة في كلّ البحوث الإنسانيّة إطلاقا "[5] إذ التقى هذا المجال بمجموعة من المعارف العلميّة في مقاربته لمختلف القضايا المتشعّبة والمتقاطعة لعمليّة الإنتاج اللّغويّ وتفكيكه لأنّ اللّغة عمليّة معقّدة تتدخّل في تحقّقها مكوّنات متنوّعة من قبيل :

[4] طعمة، عبد الرّحمان، البعد الذّهنيّ في اللّسانيّات العرفانيّة مدخل مفاهيمي، تحرير صابر الحباشة، دراسات في اللّسانيّات العرفانيّة، الذّهن واللّغة والواقع مباحث لغويّة (مؤلّف جماعيّ) دار وجوه للنّشر والتّوزيع، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط 1 ،2019، ص 19

[5] المسدّي، عبد السّلام، التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، الدّار العربيّة للكتاب ط2،1986، ص 9.

*المادّة البيولوجيّة المرتبطة بتكوين الدّماغ والشّبكات العصبيّة المعقّدة.

*المادّة الفيزيولوجيّة العضويّة من جهاز النّطق ومكوّناته.

*الوظائف العليا للدّماغ كالذّاكرة والإدراك والتّعلّم وما يتعلق بذلك من اجتماع وثقافة وانتربولوجيا.

لذلك يتّسع البحث اللّسانيّ لدراسة الظّاهرة اللّغويّة لا على مستوى الإنجاز فحسب أي أصواتا وصرفا وتركيبا ودلالة بل يتجاوز ذلك إلى معرفة العمليّات العصبيّة الدّقيقة التي تقع في الدّماغ البشريّ وتميّزه عن بقيّة الكائنات للإجابة عن سؤال محوريّ هو كيف يشتغل الدّماغ حين نتواصل ؟ وسبيلها في ذلك تداخل العلوم للاستفادة من النتائج الثّابتة فيها "إنّ توحيد الكفاءات والمعارف التّخصّصيّة يمكن أن يكون على مستويات متنوّعة من التّفاعل فقد يتعلّق بعمليّات نقل أو استعارة مفاهيم أو طرائق من حقل علميّ إلى آخر أو تهجين أو تقاطع بين التّخصّصات بإنشاء حقول بحثيّة جديدة من خلال المزاوجة بين تخصّصين أو أكثر." [6]

يتضمّن البحث اللّسانيّ كلّ جوانب اللّغة البشريّة من أصوات وبنية ومعنى وتداول وتطوّر عبر الزّمن وتنوّع في سياقات اجتماعيّة مختلفة لذلك فهو يتداخل مع عديد الاختصاصات الأخرى ويطبّق في مجالات واسعة لأنّ اللّغة تحتلّ دورا مركزيّا في التّواصل البشريّ والإدراك ممّا يفرض على الباحث التّسلّح بآليّات ممتدّة إلى العلوم الأخرى خاصّة علم النّفس وعلم الاجتماع اللذين يشكّلان رافدين معرفيّين أساسيّين لتكون النّتائج فعّالة ."أضحت اللّسانيّات قطب الرّحى في التّفكير الإنسانيّ الحديث من حيث بلورة المناهج والممارسات وأصبحت بذلك مفتاح كلّ حداثة."[7]

2-أصول التّواصل البشريّ على ضوء علم النفس التطوّري المقارن"[8]

اختلفت الفرضيّات في المنطلقات النّظريّة والفكريّة لدراسة عوامل نشأة اللّغة وتتبّع مسارها التّطوّريّ لتبيّن طبيعة العلاقات الجامعة بين النّظام اللّغويّ البشري المنطوق من ناحية وبقيّة الأنظمة الإشاريّة وتصويت الحيوانات من ناحية أخرى فأجمعت على الإقرار بضرورة ضبط العلاقة الممكنة بين اللّغة البشريّة والتّواصل الحيوانيّ لتتبّع هذا المسار انطلاقا من أصوله الحيوانيّة ومرورا بمن سبق من البشر. إضافة إلى ضرورة التّرافق العلميّ والإجرائيّ بين اللّسانيّات وعلم النّفس وعلم النّفس التّطوّري المقارن للإحاطة بكلّ خصائص الانسان البيولوجيّة

---

[6] ابن خود، نورالدّين، دليل الدّراسات البينيّة العربيّة في اللّغة واللّسانيّات والأدب فهرسة وتمهيد، مركز دراسات اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة ص 12

[7] المسدّي، عبد السّلام، التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، الدّار العربيّة للكتاب ط 2،1986 ، ص11

[8] Developmental and comparative Psychology

والثّقافيّة وما يتعلّق به من نظم اجتماعيّة ونفسيّة للوقوف على حقيقة الظّاهرة اللّغويّة. ولنا أن نتساءل عن خصائص هذا العلم ومميّزاته على مستوى المنهج والمضمون.

3-منهج علم النفس الإدراكيّ التّطوّريّ ومباحثه

يدرس هذا العلم العمليّات الإدراكيّة الاجتماعيّة عند البشر و"الرّئيسات"[9] وهي القردة كبيرة الحجم ويتضمّن مباحث رئيسيّة أهمّها :

*دراسة الجينات الدّاخليّة للإدراك الاجتماعيّ البشريّ بالتّركيز على المهارات الإدراكيّة الاجتماعيّة للأطفال منذ ميلادهم إلى حدود أربع سنوات، والنّظر في أهميّة التّعاضد والتّعاون والتّواصل ما قبل لسانيّ والمحاكاة واشتغال الذّهن.

* البحث في "الاكتساب اللّغويّ"[10] بدراسة الجينات الدّاخليّة المورّثة للمهارات المميّزة للجنس البشريّ والمنطلق الأساسيّ فيها العلاقة بين اشتغال الذّهن واللّسانيّات بالتّركيز على دراسة النّحو الأوّل عند الأطفال.

*دراسة «إدراك الرّئيسات"[11] في مواطنها الطّبيعية والبحث في تطوّر أنظمتها السّلوكية مع بني جنسها من جهة ومع البشر من جهة أخرى.

*تحليل المشكلات التكيّفية التي جابهها أسلافنا، وبحث الحلول النّفسية لتلك المشكلات.

*تحليل الذّهن البشريّ وما يتضمّنه من مهارات متطوّرة ومعقّدة وعلاقته بالأطر والبيئة التي تفعّل فيها هذه المهارات، والنّتائج المنجرّة عن ذلك فيتمّ الكشف عن جملة التكيّفات التي تشكّل الذّهن وتمكّنه من إنتاج سلوك لحلّ مشكلة ما كاكتساب اللّغة والتّعاون والتّعايش.

على مستوى المنهج يوظّف علماء النّفس التطوّريون المنهج المقارنيّ للاستدلال واختبار الفرضيّات وذلك بـ:

*المقارنة بين نوعين مختلفين: بشر / رئيسات

*المقارنة بين الأفراد ضمن النّوع الواحد كالمقارنة بين البكم والمتكلّمين.

*مقارنة سلوك الفرد ذاته في سياقات مختلفة: كتغيّر لغة المتكلّم بتغيّر الدّوافع التّواصليّة.

4-علم النفس التطوّري المقارن والبحث في أصول التّواصل البشريّ

[9] Primates
[10] The ontogeny of Human social cognition
[11] Primate cognition

تجلّت ملامح هذا المبحث بوضوح في كتاب "أصول التّواصل البشريّ[12] " لمايكل طوماسيلو[13] الذي

اهتم منذ كتاباته الأولى بدراسة العمليات الثقافيّة والإدراكيّة التي ينفرد بها البشر عن أكثر الكائنات شبها بهم، وهي الرّئيسات مع التّركيز على الإدراك الاجتماعيّ والبحث في كيفيّة نموّ خصيصة التّعاون والتّعاضد إلى جانب البحث في مسألة الاكتساب اللّغويّ استنادا إلى بعض المقارنات التجريبيّة بين الطّفل في سنواته الأولى والرّئيسات. هي بحوث اتّفقت في نتائجها حول حقيقة تفرّد الجنس البشريّ في المجال اللّغويّ.

4-1نظام التّواصل عند الرّئيسات

تمتلك الرّئيسات نظامين للتّواصل، وهما نظام صوتيّ مثبّت جينيّا ومرتبط بالانفعالات اللاّإرادية، تشد بواسطته انتباه المتقبل. لكن قد لا تؤثّر فيه. ونظام إشاريّ متضمّن في الأصول الوراثيّة الداخليّة، وتستخدمه للتّواصل بطريقة مرنة وقصديّة.. وقد قسّمها طوماسيلو إلى نوعين:

*إشارات تعبر عن الطّلب بطريقة مباشرة وهي الإشارات القصديّة.

*إشارات تعبر عن الطّلب بطريقة غير مباشرة وهي إشارات الغاية منها شدّ الانتباه.

ومثّل هذا النّظام الإشاريّ قاعدة أساسية لدراسة أصول التّواصل البشريّ "إشارات الرّئيسات من أندر أشكال التّواصل التطوّري. وهي الحلقة المفقودة في أصل التّواصل البشريّ وكلّ ما يتضمّنه من توجيه للانتباه والمشاركة"[14] وقد قارن طوماسيلو بين نظامي التّواصل عند الرّئيسات قائلا "إشارات الرّئيسات بكل ما تتضمّنه من مرونة وتركيز على شدّ انتباه الآخر هي الأصل الذي نشأ منه تعقّد التّواصل البشريّ وثراؤه عكس التّصويت الخالي من المرونة والمتجاهل للآخر."[(15)]

---

[12] Origins Of Human Communication MIT Press, Cambridge, Massachusetts; London, England; 2008

[13] Michael Tomasello هو عالم نفس من مواليد سنة خمسين وتسع مائة وألف بفلوريدا في أمريكا، تحصّل على شهادة في علم النّفس من جامعة Duke سنة اثنتين وسبعين وتسع مائة وألف، فالدّكتوراه من جامعة جورجيا في علم النّفس التّجريبي سنة ثمانين وتسع مائة وألف، ثمّ درس علم النفس في جامعة Emory في أطلنطا ومن أهم كتبه

- Primate cognition,with Josef Call, oxford university press,1997
-The cultural origins of human cognition, Harvard Univesty Press,1999
-Constructing a language : A usage-based theory of language Acquisition,Harvard University Press,2005

[14] Tomasello; Michael; Origins Of Human Communication; p54

[15] نفسه ص 55.

يرتبط التّصويت عند الرّئيسات بالانفعالات ومن خصائصه فقدان القصديّة مثلها مثل التّواصل عند بقية الحيوانات، فهو تصويت عشوائي يتفوّق عليه التّصويت البشريّ بالقصديّة التي تتولّد من الأعمال اليوميّة البشرية.

فماذا عن التّواصل البشريّ؟ وما علاقته بنظام التّواصل عند الرّئيسات؟

4-2أصول التّواصل البشريّ

تناول طوماسيلّو ظاهرة التّواصل البشري من زاوية علم النّفس التّطوّري متبنّيا في مسألة أصل اللّغة نشأتها من مكوّن إشاري أخذ يتطوّر اتّساعا وعمقا وتعقيدا بقدر التّطوّر البيولوجي كانتصاب القامة، والسّعي على القدمين، وتطوّر شكل اليدين، باحثا في ما يميّزه من خصائص، مقسّما عوامل نموّه إلى قطبين: قطب داخليّ فردي بيولوجي، وأخر خارجي محكوم بميل البشر إلى التّعاون والتّعاضد والقصديّة.

4-3الإشارة والاكتساب الأوّل عند الأطفال .

قسمّ طوماسيلو عوامل نشأة اللّغة إلى نوعين: العوامل الوراثيّة الدّاخليّة والعوامل الوراثيّة الخارجيّة في محاولة للبحث في أصول التّواصل البشريّ وتطوّرهّ من الإشارة إلى الكلمة،

تبنّى طوماسيلّو الفرضيّة القائلة بأنّ مصدر الإشارات عند الأطفال في سنّ ما قبل اللّغة ليس تقليدا للآخرين، بل هو نشاط طبيعيّ يتم توجيهه اجتماعيّا عبر التّفاعل. ومن أولى الإشارات التي يستعملها الأطفال في سنّ مبكّرة والتي تتحوّل إلى طقوس تتماثل في جوهرها مع الإشارات عند الشّامبانزي إشارة رفع اليدين إلى أعلى رغبة منهم في الحمل. و يتطوّر هذا النّظام بتقدّم الطّفل في السّن ليصبح قادرا على إصدار إشارات لتبليغ رسائل تتجاوز الطّلب إلى الإعلام وشدّ الانتباه فالطّفل يصدر الإشارة إذن بدافعين مختلفين هما:

*دافع الإعلام أو الإخبار الذي قد يتفرّع عنه دافع المشاركة في الحالات الانفعالية كالخوف والسّعادة والألم والحيرة.

*دافع الطلب لتحقيق حدث ما أو استحضار متصوّر ما.

يشترك هذان الدافعان في نقطة شدّ الانتباه وتوجيهه بحثا عن التّفاعل الإيجابي أثناء عملية التّواصل. وعند الفشل في بلوغ هدفه يكرّر الطّفل ذلك بطريقة تعزّز الإشارة، وهي تبادل النّظرات بين المتصوّر والمتقبّل للوصول إلى الانتباه المشترك. ثمّ تتطوّر هذه الملكة بين الشّهر الثّاني عشر والرّابع عشر لتصبح أعمق من كونها إشارة أو نظرات أو شدّ انتباه، وذلك بتضمّنها القصد الذي يرتبط بالأرضيّة المشتركة "التي تساعد الطّفل على الاستدلال الملائم وفهم القصديّة

الاجتماعية"[16].و في هذه المرحلة لا يعتمد الطّفل على ميولاته الذاتيّة لبلوغ التّأويل والاستدلال بل يلتزم بالأرضيّة المشتركة والتفكير التّعاونيّ ويتجلّى ذلك أثناء بلوغ مرحلة الفهم والاستيعاب أثناء عمليّة التّواصل .

يتواصل الأطفال منذ الولادة مع محيطهم الاجتماعيّ الطّبيعيّ لغاية أساسيّة هي إثارة انتباه المتقبّل وتوجيهه عبر النّظرات. وهم يدركون تماما أن الإشارات هي المبدأ الأول لتحقيق التّواصل تعاونيّا مع الآخر في إطار أرضية تصوّرية مشتركة، وهذا الأمر يؤكد فرضيّة وجود أرضيّة للتّواصل التّعاونيّ في الجينات الوراثيّة البشريّة "أغلب الأطفال تظهر عندهم الإشارة منذ الولادة قبل اللّغة، مما يبيّن أن الجينات الوراثيّة الدّاخليّة تمثّل أرضيّة أوّليّة للتّواصل التّعاونيّ والتّي لا تشتغل في اللّغة بل في استعمال الإشارات"[17]. فالإشارات إذن هي المستوى الأوّل والبسيط الذي يمكّن الرّضيع من التّواصل دون تعقيد.

تظهر الإشارة في السّلوكات الحسيّة الحركيّة عند الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم ثلاثة أشهر، إذ تراهم يرفعون أيديهم في حركات مختلفة ومتنّوعة" السّلوك الإشاريّ عند الأطفال يكون جاهزا بشكل متطوّر في سنّ ثلاثة أشهر"[18]. وينجز الرّضيع هذه الإشارات مدفوعا بأسباب ثلاثة هي:

*الطّلب[19].

*الإعلام[20].

*المشاركة[21].

هي الدّوافع الطّبيعيّة والأساسيّة للتّواصل البشريّ، ولكلّ منها أصوله الوراثيّة الدّاخليّة.

فالإشارة بديل عن المنطوق أو مكمّل له بل أداة تواصل تامّة، متضمّنة كل المكوّنات المتنوّعة للتّواصل البشريّ التعاونيّ، وذلك في مرحلة ما قبل النّطق عند الأطفال، وعند الإنسان البدائيّ قبل أن تتطور لتصبح لغة منطوقة وصنّفها إلى نوعين :

*إشارات توجّه انتباه المتقبل فضائيّا لمرجع ما في محيط إدراكيّ ما.

*إشارات توجّه خيال المتقبّل لمرجع غير موجود في المحيط الإدراكيّ التصوريّ بطريقة أيقونيّة.

---

[16] نفسه ص 126.
[17] نفسه، ص134
[18] نفسه، ص 134

[19] requesting
[20] informing
[21] sharing

وتوجّه هذه الإشارات بنوعيها انتباه المتقبّل أو خياله فتحثّه على الاستدلال على القصديّة الاجتماعيّة التّواصليّة أي ما يريده الباثّ من المتقبّل سواء كان إعلاما أو طلبا أو مجرّد رغبة في المشاركة.

فهي إذن قادرة على تحقيق التّواصل بين البشر في وضعيّات تتنوّع بين البساطة والتّعقيد وهي النّظام الأوّل الذي يستعمله الأطفال قبل اكتساب القدرة على النّطق لتوجيه انتباه الآخرين لمختلف الأهداف التي يرغبون في تحقيقها أو الحصول عليها وينجحون في ذلك حتّى في الوضعيّات المعقّدة.

في إطار مقارنة الإشارة عند البشر بتلك التي عند الرّئيسات وجد "طوماسيلو" نقطة تقاطع بينهما تتمثّل في أن كليهما ينجح في شدّ انتباه المتقبّل ولكنّه رصد نقطة اختلاف هامّة تتمثّل في أنّ شدّ الانتباه عند الرّئيسات يعتمد على الميل الطّبيعيّ لمعرفة مصدر الصّوت أو الإشارة بينما يعتمد البشر على اتّباع "اتّجاه التّحديق"[22]. لأنّ العين البشريّة تطوّرت لتعزيز التواصل فانزاحت عن وظيفتها البيولوجيّة الطبيعيّة المتمثّلة في الإبصار لتدخل دائرة الثقافيّ والاجتماعيّ، فدعّمت التّواصل الإشاريّ وكذلك اللّغويّ لتصبح عاملا مساعدا على الاستدلال واتّباع اتّجاه الإشارة في المحيط الخارجي والبحث عن الهدف المقصود.

4-4الإيماء

هو إشارات الأيقونية، يستعملها البشر "كأداة تامّة للتّواصل"[23] لأن الإيماء يفصّل ما كان مجملا فيحقق "الوصف والتّخصيص والتّخييل والتّمثيل"[24]. وهو من الكلّيات الثقافيّة، و يتحقق بالجسد لدفع المتقبّل لتخيّل بعض المراجع أو الكيانات، وهو أيضا محاكاة لوضعيآت لا تتحقّق إلاّ بوجود مهارات كالتّقليد والمحاكاة والتّرميز. وهي شروط عجزت الرّئيسات عن تحقيقها، لذلك لا وجود لإيماءات عندها. و يحقق الإنسان غايات مختلفة بالإيماء كالتّعبير عن الرّغبة في إنجاز حدث ما أو مطالبة المتقبّل بإنجازه أو طلب توفير شيء ما يساعد على تحقيق الحدث. و يشترك الإيماء مع الإشارة في ضرورة فهم القصد لنجاح عمليّة التّواصل وكذلك في استقلاليّتهما على الملكة اللّغويّة، ويستدلّ "طوماسيلو" على ذلك بقدرة الأطفال البكم والرّضّع على أدائهما.

4-5من الإشارة إلى العبارة

[22] - Gaze direction , p.62.

[23] نفسه ص 66.

[24] نفسه ص 66.

لقد تطوّر النّظام الإشاريّ عند البشر إلى نظام لغويّ، وهو أمر غير متحقّق عند الرّئيسات التي بقي نظامها الإشاريّ جامدا، " والسؤال الذي يطرح بصفة آلية هو كيف انتهى البشر إلى استبدال النّظام الإشاريّ بالنظام الصوتيّ"؟[25]

كان التّصويت في البداية للتعبير عن بعض الانفعالات أو لتعزيز التّواصل الإشاريّ وتدعيمه أو لإنجاح تنفيذ بعض الأنشطة التّعاضديّة، وبتكرار الأمر أصبح الإنسان أكثر قدرة على التحكّم في ما يصدره إلى درجة تقليد أصوات الحيوانات .

وفي بعض الوضعيّات وجد الإنسان نفسه مجبرا على استعمال التّصويت بدل الإشارة بحكم المسافة بينه وبين المتقبل أو لتواجده أحيانا في بعض الأماكن العامّة، وكذلك لقصور النّظام الإشاريّ عن تمثيل بعض المفردات أيقونيا. وفي الشّكل الموالي رصد للتآريخ التطوّري للإشارة والإيماء من الرئيسات إلى البشر.

شدّ الإنتباه عند الرئيسات ← الإشارة التعاونية عند الإنسان ← أسماء الإشارة المشيرات في اللغة

الحركات القصدية عند الرئيسات ← الإيماء عند الإنسان ← الكلمات المليئة في اللغة (الأسماء / الأفعال)

26

نفهم من هذا الشّكل وجود طريقتين لشدّ الانتباه ويكون ذلك إمّا بالإشارة التي تطوّرت مع البشر لتصبح "مشيرات" أو عبر الإيماء الذي تطوّر ليتمّ تعويضه بالأسماء والأفعال وهو ما سمّاه طوماسيلو "بالكلمات المليئة". و هو بذلك لا يبحث عن تاريخ دقيق لظهور اللّغة بل يرتّب المراحل التي مرّ بها ظهورها عند الإنسان، انطلاقا من فرضيّة أسبقيّة الإشارة على اللّغة في التّواصل التي يثبتها بعودة الإنسان إلى التّواصل إشاريّا وإيمائيّا إذا ما تعذّر التّواصل اللّغويّ لتحقيق التّفاعل، والقيام بأنشطته اليوميّة كالتّنقل أو التبضّع مع متقبّل لا يشترك معه في اللّغة بل يشتركان معا في الأرضيّة فحسب.

وتبدأ سلسلة التطوّر بالأنشطة التّعاضدية لتصل إلى التّواصل التّعاونيّ الذي يتطلب مهارات إدراكيّة لا وجود لها عند الرّئيسات كالقصديّة والتّشارك والاستدلال والأرضية التصوريّة والانتظارات المتبادلة ومجموعة المعايير التي تحكم التّفاعل وتنظّم التّعايش داخل المجموعة اللّغويّة ثم تطوّرت هذه الآليات الإدراكيّة بفعل التّكرار.

---

[25] طوما سيلو 2008 ص 230

[26] طوما سيلو 2008 ص 235

وفي ما يلي رسم يتضمّن الأسس التطوّرية للتواصل التعاونيّ البشريّ.

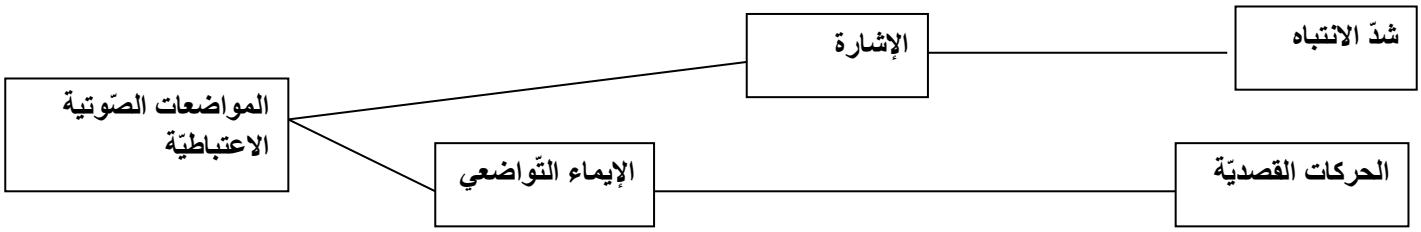

يؤكّد طوماسيلو على خصيصة أساسيّة هي القراءة الذهنيّة التكرارية "التي تبدع أهدافا مشتركة وتخلق بدورها أطرا انتباهيّة مشتركة مناسبة للأهداف المشتركة وتستخدم كأرضية تصوّرية تعطي معاني للإشارة ولبعض الأعمال التواصلية الأخرى"[27].أمّا الخصيصة الأساسيّة الثانية التي لا تقلّ أهميّة عن الأولى فتتمثّل في ميل الإنسان طبيعيّا إلى طلب المساعدة أو توفيرها سواء أ كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في إطار أهداف أساسية ثلاثة وهي :

الإعلام

الطلب

المشاركة والرغبة في التماثل مع أفراد النوع.

وتمتزج هذه الدوافع "بالانتظارات المتبادلة"[28] لتصبح المعايير التي تحكم الكثير من الأنشطة الإنسانية بما في ذلك التّواصل التّعاونيّ. وفي إطار هذا المسار التطوّريّ تطوّر شدّ الانتباه عند الرّئيسات إلى إشارات وتطوّرت إشاراتها القصديّة إلى إيماءات

في مقاربته لأصول التّواصل البشريّ يتجاوز طوماسيلّو العوامل الفطريّة الدّاخليّة بفسح المجال أمام عوامل وراثيّة خارجيّة استفاد فيها من مقولات علم النّفس التطوّريّ و تساهم بشكل أساسي في تحقّق الاكتساب اللّغويّ عند الفرد و تتمثل أساسا في:

* القدرة على إدراك القصديّة.
* القدرة على انتقاء ما يتلاءم مع دوافعه التّواصليّة.
* القدرة على الانتباه المشترك.
* الإيمان بإيجابيّة التّبادل والتّعاون
* القدرة على بناء تمثيل ذهنيّ لما يستمع إليه أو يشاهده

[27] طوما سيلو 2008 ص 240

[28] Mutual Assumption

* امتلاك الشّعور بالهويّة الجماعية أثناء التّفاعل والتّواصل
* احترام المعايير الاجتماعيّة والاعتراف بها والانخراط في المواضعات اللّسانيّة.

5-التّطوّر الدّلاليّ على ضوء علم النّفس التّطوّريّ المقارن

يتداخل علم النفس التطوريّ المقارن مع اللّسانيات خاصّة في دراسة التّطوّر الدّلاليّ الذي يفسّر العمليّة التي تتغيّر فيها معاني المفردات والتراكيب في اللغات الطبيعيّة بمرور الزمن. ويحدث هذا التّغيّر نتيجة عوامل متعدّدة، من بينها التغيّرات الثقافيّة والاجتماعيّة والنفسيّة وهو ما يجعل العلاقة بين اللّغة والإدراك محورًا أساسيّا في دراسة التّطوّر الدّلالي.

يفترض علم النّفس التّطوّري أنّ اللغة ليست مجرّد نظام اعتباطي، بل هي منظومة متأثّرة بالتكيّفات الإدراكيّة التي سمحت للإنسان بالتواصل الفعّال . وبناء على ذلك ، فإنّ التطوّر الدّلاليّ يعكس التغيرّات في الإدراك البشريّ. " لا المعجم ولا التّراكيب يمرّان من جيل إلى جيل بطريقة آمنة ووفية".[29] ولا يخطط الفرد لهذا التطوّر ولا المجموعة كذلك. ولا يختار ذلك، بل هي ظاهرة غير قابلة للإدراك "وقد سماها كيلارKiller 1994 بظاهرة اليد الخفية"[30]. وقد يكون ميل الفرد لقاعدة المجهود الأدنى من بين العوامل المفسّرة لهذا التطوّر والإبداع وهي قاعدة يشارك في تطبيقها كلّ من الباثّ والمتقبّل اعتمادا في ذلك على الرّسالة في حدّ ذاتها وعلى الأرضية المشتركة التي تسهّل الاستدلال والاستيعاب

تتمّ عمليّة الإبداع والتّطور في اللّغة عبر الزّمن في علاقة وثيقة بالأرضيّة المشتركة والانتباه المشترك. وهما عنصران أساسيّان في نجاح عمليّة التّواصل القابلة للإنجاز في إطار متأثّر بعاملي الاقتصاد والتّبسيط. ويكون ذلك بقواعد نحوية تركيبية تمثّل المعيار الذي تقاس به مقبوليّة الخطاب.

يكتسب المتكلّم المعاني التي يعيد إنتاجها في أطر ثقافيّة واجتماعيّة ناتجة عن التّفاعل بين الفرديّ والجماعيّ فتتراكم الابتكارات والتّعديلات في الذّاكرة التي تحتفظ بالتّراث الاجتماعيّ الذي تبنى على أساسه المعاني الجديدة لذلك لا تحافظ هذه الرّموز على الشّكل نفسه منذ اختراعها، بل تنشأ وتتطوّر وتتغيّر و تراكم التّعديلات على مدى الزّمن.

---

[29] نفسه، ص 298
[30] نفسه، ص 299

تتغيّر الأبنية النّحويّة نتيجة التّواصل التّعاونيّ الذي يسعى فيه الباثّ إلى ضمان نجاح التّواصل باعتماد مبدأي التّبسيط والاقتصاد إضافة إلى التّقليص من اللّبس والغموض لضمان الحدّ الأقصى من الإعلام في إطار انتباهيّ مشترك.

الخاتمة

يظهر من خلال هذه المقاربة أنّ علم النّفس التّطوّري المقارن ساهم بشكل جوهريّ في تفسير آليّات التّطوّر الدّلاليّ. فالتغيّرات في المعاني ليست عشوائيّة، بل هي انعكاس لتكيّفات تعكس حاجة الإنسان إلى الفهم والتّواصل الفعّال في بيئته المتغيّرة.

تؤكّد هذه النّتائج أنّ التّفاعل بين العلوم لم يعد ترفا بحثيّا بل هو ضرورة فرضتها ظروف تمثّلت في اتّساع دائرة المعارف واتّجاهها إلى التّعمّق في المسائل المدروسة وتطوّر التّفكير فيها. هو تفاعل انفتح بمقتضاه البحث اللّغويّ على مرجعيّات علميّة دقيقة ومتطوّرة أهّلته لبلورة تصوّرات نظريّة مختلفة حول طبيعة الظّاهرة اللّغويّة والعوامل المتحكّمة في اكتسابها. وهي تصوّرات يغلب على بعضها طابع التّباين نتيجة تمسّك أصحابها بروح المبادئ التي تنبني عليها هذه النّظريّة أو تلك ويهيمن على بعضها طابع التّداخل بفعل الانفتاح على النّتائج الايجابيّة لأهمّ النّظريّات نفسيّة كانت أو لسانيّة من جهة، وتعدّد المستويات المشكّلة للظّاهرة اللّغويّة من جهة أخرى ،

لذلك نخلص إلى مساهمة كلّ مجال ومقولاته النّظريّة والإجرائيّة في تقدّم البحث اللّسانيّ لفكّ الشّفرة اللّغويّة وإدراك أسرارها لأنّ اللّسانيات حقل علميّ بينيّ بامتياز.

قائمة المراجع

*العربيّة

-ابن خود، نورالدّين، دليل الدّراسات البينيّة العربيّة في اللّغة واللّسانيّات والأدب فهرسة وتمهيد، مركز دراسات اللّغة العربيّة وآدابها، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة.

-المسدّي، عبد السّلام، التّفكير اللّسانيّ في الحضارة العربيّة، الدّار العربيّة للكتاب ط2، 1986
-طعمة، عبد الرّحمان، البعد الذّهنيّ في اللّسانيّات العرفانيّة مدخل مفاهيمي، تحرير صابر الحباشة، دراسات في اللّسانيّات العرفانيّة، الذّهن واللّغة والواقع مباحث لغويّة (مؤلّف جماعيّ) دار وجوه للنّشر والتّوزيع، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط 1 ،2019،

*المراجع الأجنبيّة

-Lacoff ;George;women,Fire And Dangerous Thing,What Categories Reveal About The Mind,The University Of Chicago And London, 1987,pXI (preface)

تعريب الأزهر الزنّاد(مدخل في اللّسانيّات الإدراكيّة)2024ص9

-Tomasello; Michael; Origins Of Human Communication MIT Press, Cambridge, Massachusetts; London, England; 2008

*الرّوابط الالكترونيّة

Sloan Report; https://digitalcollections.library.cmu.edu/node/31966